HARRAN ÜNİVERSİTESİ İLAHİYAT FAKÜLTESİ
HARRAN UNIVERSITY FACULTY OF THEOLOGY

ULUSLARARASI MEVLÂNA VE MEVLEVÎLİK SEMPOZYUMU

INTERNATIONAL SYMPOSIUM ON MAWLANA JALAL AL-DIN RUMI AND MAWLAWISM

Mevlâna Celaleddin Rumi'nin 800. doğum yıldönümü anısına

BİLDİRİLER II

26–28 EKİM 2007

ŞANLIURFA

ULUSLARARASI MEVLANA VE MEVLEVİLİK SEMPOZYUMU BİLDİRİLERİ-II

ISBN
978-605-89998-2-4

Düzenleyen Kuruluşlar
Harran Üniversitesi İlahiyat Fakültesi
Şanlıurfa Mevlevihanesi Yaşatma ve Kültür Derneği

Editörler
Prof. Dr. Abdurrahman ELMALI
Prof. Dr. Ali BAKKAL

Düzenleme Kurulu
Başkan: Prof. Dr. Abdurrahman ELMALI
Sekreterya: Dr. Hüseyin KURT
Prof. Dr. Ali BAKKAL, Prof. Dr. Musa Kazım YILMAZ, Prof. Dr. Adnan DEMİRCAN, Prof. Dr. Yusuf Ziya KESKİN, Doç. Dr. Murat AKGÜNDÜZ, Yrd. Doç. Dr. Cüneyt GÖKÇE, Yrd. Doç. Dr. Harun ŞAHİN, Yrd. Doç. Dr. İ. Hakkı İNAL, Yrd. Doç. Dr. Yasin KAHYAOĞLU, Yrd. Doç. Dr. Ahmet ASLAN, Dr. Celil ABUZER, Dr. Halil ÖZCAN, Dr. Kadir PAKSOY, Dr. Veysel KASAR, Dr. Vehbi ŞAHİNALP, Okt. Kadir ALPEREN, Okt. Abdülkadir AYDIN, Okt. Mehmet OYMAK

Bilim ve Danışma Kurulu
Prof. Dr. İbrahim DÜZEN
Prof. Dr. Ethem CEBECİOĞLU
Prof. Dr. Osman TÜRER
Prof. Dr. Mustafa KARA
Prof. Dr. Abdullah ÖZBEK
Prof. Dr. Abdülhakim YÜCE
Prof. Dr. İsmail YAKIT
Prof. Dr. Ali BAKKAL
Prof. Dr. Musa Kazım YILMAZ
Prof. Dr. Adnan DEMİRCAN

Dizgi-Tasarım
Arş. Gör. Dr. Hüseyin KURT
Harran Üniversitesi İlahiyat Fakültesi

Grafik Tasarım
Öğr. Gör. Haldun ÖZBUDUN
Harran Üniversitesi Fen-Edebiyat Fakültesi

Adres
Harran Üniversitesi İlahiyat Fakültesi, Osmanbey Kampusü/ Şanlıurfa

دلالة قصص الحيوان في (مثنوي) جلال الدين الرومي

الدكتورة سويس حميد البطمان*

إنّ بناء الفكر المتميّز في العصر الحديث يبدأ من اللحظة التي تستعاد فيها قراءة التراث العالمي القديم في ضوء معطيات الفكر الحديث. ولهذا وقع الاختيار على (مثنوي) شاعر الصوفيّة الأكبر جلال الدين الرومي الذي " أجمع كل من كتب عنه من المستشرفين، على أنه أعظم شعراء الصوفيّة في العالم، في الأدب الفارسي واللّغتين العربية والتركية في كل مكان وزمان " (1).

اشتهر جلال الدين بلقبه (الرومي) نسبة إلى بلاد الروم التي كانت تطلق على آسيا الصغرى (الأناضول) حيث أمضى الشطر الأكبر من حياته. اسمه الحقيقي محمد بن محمد بن الحسين بن أحمد البلخي ثم القونوي. المعروف بمولانا جلال الدين الرومي. ولد سنة (406 هـ) في مدينة (بلخ) المعروفة حالياً بـ (أفغانستان). وكانت آنئذٍ من المراكز الثّقافية والأدبية والعقائدية وإحدى مراكز التصوّف. كان أبوه محمد بن الحسين الخطيبي الملقب ببهاء الدين ولد عالماً دينياً وفقيهاً وواعظاً صوفياً يحظى باحترام حاكم الإقليم وتقديره، وكان يكنّى بسلطان العلماء. ويرجع نسبه إلى الخليفة الأول أبي بكر الصديق. وهو يمتُّ بصلة القرابة لأسرة (خوارزمشاه) التي كانت تحكم شمالي شرقي إيران وما وراء النهر.

ضاق والده بهاء الدين ولد بحياته وحياة أسرته في (بلخ) على أثر الاختلاف مع حاكم الإقليم، ومع المعارضة التي حصلت بينه وبين الأهالي، وكذلك بسبب اقتراب الغزو المغولي، فهاجر بأسرته وولده الصغير إلى نيسابور حيث زار الشيخ الصوفي الشاعر فريد الدين العطار الذي توسّم النبوغ في هذا الطفل وأهداه كتاب (أسرارنامه)* بعد أن احتضنه و دعا له. ثم تابعت الأسرة سيرها فبلغت بغداد، ثم توجّهت إلى مكة المكرمة، وبعدها إلى ملّطية وأقامت فيها أربع سنوات، ثم قصدت لارندة حيث سكنتها سبع سنين. وانتهت إلى مدينة قونية أعظم مدن الإسلام في بلاد الروم، حيث توفي والد جلال الدين عام (628 هـ).

لجأ إلى قونية برهان الدين (محقق الترمذي)، هَرَباً من الغزو المغولي، وكان صديقاً لوالد شاعرنا، فأخذ العلم عنه إلى جانب ما كان قد تلقّاه من أبيه. ثم غادر الشاب قونية متوجهاً إلى بلاد الشام، فقصد حلب ودمشق، حيث التقى العارف المشهور ابن عربي الذي توفي سنة (638 هـ) ، ومكث فيها سنوات، واشتغل بتحصيل العلم، ثم رجع إلى قونية حيث قام بتدريس العلوم الدينية وبالوعظ. واستمر يتكاثر طلابه ومريدوه، وتعلّقوا به ونهجوا على حبه واحترامه.

وفي السابعة والثلاثين من عمره التقى مولانا بالإمام الصالح، الدرويش الجوّال شمس الدين التبريزي، ونشأت أواصرا محبة قلبية وإعجاب شديد بينهما، ومنذ ذلك الحين أخذ يكتب الكثير عن هذه العلاقة؛ وقبل هذا اللقاء كان جلال الدين أستاذاً بارعاً في الفقه وغيره من العلوم الإسلامية، عالماً بالمذاهب والخلاف، وعلى درجة عالية من التصوّف. وبعد هذا اللقاء أصبح شاعراً ملهماً يعشق الإنسانية عشقاً لا حدود له، وأخذ ينشد الغزليات التي جمعت في مجلد واحد.

وجد الرومي في شمس تبريز انعكاساً نقياً لله، وكان المرآة الحقيقية لشاعرنا ومن هنا توطّدت العلاقة بينهما حتى ثارت غيرة تلاميذ الرومي ومريديه، وأخذوا يهدّدون شمس الدين بحياته إلى
وحزناً دفيناً في نفس مولانا. فما كان من ابنه سلطان ولد إلا أن ذهب إلى دمشق وعاد بشمس الحبيب. لكن شمس الدين رحل عن الرومي للمرة الثانية وكانت الأخيرة، " ولم يعرف له موضع، ويقال: إن حاشية مولانا جلال الدين قصدوه واغتالوه، واللهأعلم " (1).

---

* جامعة حلب كلية الآداب والعلوم الإنسانية قسم اللغة العربية وآدابهاswiessb@gmail.com

(1) أدهم آل جندي. 1958م - أعلام الأدب والفن. مطبعة الاتحاد، دمشق، 2:853.

* أي (رسالة الأسرار).

(1) محي الدين عبد القادر الحنفي المصري. 1332هـ- الجواهر المُضيّة في طبقات الحنفية، مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية، الطبعة الأولى، الهند، حيدر آباد، 2:125.

وبعد افتراقه عن شمس الدين حوّل حبه نحو صائغ ذهب يدعى صلاح الدين رزكوب. وبعد موت الصائغ، وفي الخمسينيات من عمره، طوّر علاقته الروحية بأحد تلامذته (حسن حسام الدين) الذي طرح عليه فكرة تأليف كتابه (المثنوي) فكان له هذا، لكن دون أن يمسك الرومي قلماً بيده؛ إذ كان يملي ذلك على تلميذه حسام الدين في المدرسة، أو في ساحات قونية أو في بساتين الكروم، وتلميذه يكتب ما يملي عليه. وكان في كل مرة يكتمل جزء منه يعيد التلميذ قراءته عليه حتى يتمكّن من تصحيح ما كتب.

تُوّفي مولانا في اليوم الخامس من جمادى الآخرة عن عمر يناهز الثامنة والستين في قونية، ودفن فيها. وقبره معروف إلى اليوم في تكيّة أصبحت مُتْحَفاً يضمّ بعض مخلّفاته ومخلّفات أحفاده. وقد خلفه تلميذه حسام الدين في رئاسة الطريقة المولوية.

تميّز مولانا جلال الدين بالتسامح ونبذ التعصّب إلى أقصى الحدود، وهذا نابع من نظرته إلى الإنسانية، فهو الذي دعا إلى إعادة الكرامة الإنسانية التي سُحِقت، وهو الذي ردّ للإنسان اعتباره. " ومن العجيب أن يبزغ مثل جلال الدين في رفعة القدْر، وعُلوّ المكانة، وصفاء التّعبير الروحي، والمناداة بالحبّ والدعوة إلى التسامح والتحليق في أجواء رائعة من الجمال والسلام على الرغم من تلك الأعاصير المطيحة والزلازل الاجتماعية المخرّبة. إنه كان ينظر إلى تلك العواصف والطّوائح نظرة هادئة نافذة ليستخلص من خلال زَيْف الحروب، وجحيم المطامع، وترويع الآمنين جوهرَ الإنسان الأصيل، وليشدو بأعذب ألحان الحبّ والتعاطف الإنسانية " (1).

كما كان رائد المحبة الإلهية، ومؤسس الصوفيّة في العالم الإسلامي في زمن تعلّق فيه الناس بالشّهوات ومتاع الدنيا. " وقد تحدّث المؤرخون عن عظمته كصوفي ... وقد وصفه أحد أدباء فارس، فقال: إن قلبه الطاهر مَخْزَن الأسرار الإلهية، ومذهبه يهدي حَيَارى الجَهالة إلى اليقين " (2).

شغل مولانا بسماع الموسيقا ونظْم الأشعار وإنشادها؛ فهو يعتقد أن اللحن والشعر الجميل يمكن أن يبلورا حالة من التأمّل، وأن هناك تجانساً بين الروح والجسد يحدث أثناء سماع الموسيقا، ومن هنا فقد " توسّع بإدخال الموسيقا في مجالس الصوفيّة. وقد اقترن الشعر عنده بالموسيقا، فكثيراً ما نظمه في مجاس السَماع، وكثيراً ما سمعه مقترناً بالإنشاد والأنغام. وقد تجلّى أثر هذا الإحساس الموسيقي في شعره " (3).

وقد تمثّل الطابع الصوفي بطرق الدراويش التي اشتهرت في تركيّة، وعرفت فيما بعد بالطريقة المولوية. ولعل الناس يعرفون مولانا جلال الدين عن طريق رقصته المولوية التي ترجع أصولها إلى ما بعد وفاة المولوي. وظلت هذه الفرقة محل إجلال وتقدير طيلة العهد العثماني، ثم تحوّل مركز المولوية إلى مدينة حلب في سورية.

اعتاد جلال الدين الرومي وأتباعه ارتداء الزيّ المولوي المكوّن من سترة قصيرة متعدّدة الألوان تمتّد حتى الرّكبة، رحبة فضفاضة، وقميص طويل الأكمام، وطاقيّة عسليّة اللون حولها عمامة، وكلتاهما مصنوعتان من وَبَر الجمال. وهو الزيّ الذي مازال دراويش المولوية يرتدونه في حفلاتهم(4).

وقد خلّف لنا فيما خلّف آثاراً علمية يمكن تصنيفها في قسمين اثنين؛ أحدهما منثور، والآخر منظوم.

فالقسم المنثور يتضمن ثلاثة مؤلفات: أولها (المجالس السبعة)، وهو خُطَب ومواعظ كان يلقيها على المنبر. وثانيها (مجموعة من الرسائل) التي كان يكتبها إلى أقاربه وأصدقائه. وثالثها كتاب (فيه ما فيه) الذي يشتمل على أحاديث ومحاضرات كان يلقيها على تلاميذه ومريديه في المجالس الخاصّة التي كانت تجمعهم(1).

أما القسم المنظوم ففي ثلاثة مؤلفات أيضاً؛ أولها ديوان (شمس تبريز) الذي يشتمل على مانظمه من الشعر الغزلي

(1) مراد كمال الدين مولوي. 2000م - قصص مثنوي جلال الدين الرومي، دمشق، توطئة عبدالكريم اليافي، ص ١١.
(2) أدهم آل جندي. أعلام الأدب والفن، 583:2.
(3) جلال الدين الرومي. 1966م - المثنوي. ترجمة محمد عبد السلام كفافي وشرحه و دراسته، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، مقدمة المترجم كفافي،1 : 19.
(4) للتوسع في جميع ما تقدم ينظر :
--محي الدين عبد القادر الحنفي المصري. الجواهر المُضيّة، 123:2 125.
- حاجي خليفة .1362هـ --11943م كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون. عني بتصحيحه وطبعه محمد شرف الدين يالتقيا، ورفعت بيلكه الكليسي، وكالة المعارف، اسطنبول، 1587:2.
--خير الدين الزركلي. 1375هـ 1956 م الأعلام. الطبعة الثانية، مطبعة كوستا تسوماس، القاهرة، 258:7.
--أدهم آل جندي. أعلام الأدب والفن، 583:2 584.
--جلال الدين الرومي. المثنوي، مقدمة المترجم كفافي، 1:1 10.
--محمد المحمودي الأشتهاردي. 1418هـ 1998م قصص المثنوي. دار المحبة البيضاء، الطبعة الأولى، بيروت، 5:1 8.
- مراد كمال الدين مولوي. قصص مولانا جلال الدين الرومي، توطئة اليافي، ص11:5.

الغنائي. وثانيها (الرباعيات) التي طبعت مع غزليات شمس تبريز. وثالثها (المثنوي)، وهو منظومة صوفية فلسفية نظمت بالفارسية —وترجمت إلى التركية، وشرحت وطبعت بها وبالعربية وبالفارسية وتخللتها أبيات عُرْبْيَّة من نظمه، وكتبت مقدمتها باللغة العربية. تقع في ستة مجلدات، وتضم مايقارب ستة وعشرين ألف بيت، أنشدها على بحر الرمل(1).

والمثنوي أثر من الآثار الأدبية العالمية الخالدة، وهو أفضل عمل روحي كتبه إنسان؛ يقول جلال الدين في مقدمته العربية " هذا كتاب المثنوي، وهو أصول أصول أصول الدين، في كشف أسرار الوصول واليقين، وهو فقه الله الأكبر، وشرع الله الأزهر، وبرهان الله الأظهر، مَثَل نوره كمشكاة فيها مصباح، يشرق إشراقاً أنور من الإصباح، وهو جِنان الجَنان، ذو العيون والأغصان، منها عين تسمّى عند أبناء هذا السبيل سلسبيلاً، وعند أصحاب المقامات والكرامات خيرٌ مقاماً وأحسن مقيلاً .... بأيدي سَفَرة كرام بررة، يمنعون أن لا يَمَسَّه إلا المُطَّهرون، لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والله يرصده ويرقبه، وهو خيرٌ حافظاً وهو أرحم الراحمين" (2).

وقد ذكر ابن بطوطة أن أهل تلك البلاد يعظّمون ذلك الكتاب، ويعتبرون كلامه، ويعلّمونه ويقرؤونه بزواياهم في ليالي الجمعات(3). وقد بالغوا في تعظيمه إلى أبعد الحدود حتى أطلقوا عليه (قرآن بهلوي) أي قرآن الفارسية(4).

موضوعه الوجود كله؛ الحياة والأحياء. الحياة بكل أطيافها ومظاهرها عموماً، والإنسان على وجه الخصوص، بكل نماذجه وشخصياته، وبكل فعالياته الدينية والثقافية والاجتماعية، فـ " الأبرار فيه يأكلون ويشربون، والأحرار منه يفرحون ويطربون، وهو كنيل مصر شرابٌ للصابرين، وحسرة على آل فرعون والكافرين، كما قال يُضلُّ به كثيراً ويهدي به كثيراً، وإنه شفاء الصدور، وجلاء الأحزان وكشّاف القرآن، وسعة الأرزاق، وتطييب الأخلاق" (1).

أما محتوياته فـ " الغرايب والنوادر، وغرر المقالات، ودرر الدلالات، وطريقة الزهّاد،وحديقة العباد، قصيرة المباني، كثيرة المعاني" (2).

والمثنوي في مجموعه يقوم على عدد كبير مما هو شائع أو مُتخيَّل من القصص الموجهّة لهدف ما. كما هو حال القصة الصوفيّة التي تُعنى بهدف أخلاقي مذهبي معّين، أو فلسفي عام. فهي ترتبط في كثير من جوانبها بأغراض مختلفة دنيوية وأخروية، مادية وروحانية. بعضها يُفهم المقصود منه بيُسر ووضوح، وبعضها الآخر يلفّه الغموض فيحتاج إلى طول نظر وتأويل وعُمْق تأمّل وتفكير.

لقد ظفر المثنوي بجانب كبير من اهتمام العلماء والباحثين —شرقيين وغربيين، عرباً وغيرَ عرب إيماناً منهم بجدوى دراسته أو ترجمته أوشرحه. وقد نجح فريق منهم برَدّ بعض قصصه إلى أصول قديمة. ولا جرم أن مصادره تعدّدت بتعدّد المناسبات، وتنوّعت بتنوّع المواقف، واختلفت باختلاف السياقات التي يسعى الشاعر فيها إلى إيضاح أفكاره بالقصّ والتمثيل. وأوّل هذه المصارد القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، ومنها أيضاً قصص الأنبياء، وسيَر كبار الصحابة والخلفاء، إلى جانب ماقتبسه من قصص كليلة ودمنة. وغير هذا كثير يضيق مجال هذا البحث عن ذكرها جميعاً. ومع هذا فإن لمولانا الرومي قدرة فائقة على تناول الموضوع المطروق، وإدخاله في فنّه، وجعله جديداً كأنه يعرض على القارئ لأول مرّة.

ومما غنيّ عن البيان أن المثنوي يضمُّ قدراً لايُستهان به من قصص الحيوان التي جاءت موزّعة على أجزائه الستة؛ نذكر منها قصص: الأسد والوحوش، والأسد والذئب والثعلب، والهدهد وسليمان، والسمكات الثلاث العاقلة والنصف عاقلة والحمقاء، والفأر والجمل، وأفراخ البطّ ربّتها الطيور الأليفة، وسقوط ابن آوى في دنّ صباغ وتلوّنه وادعاؤه الطاووسية، وتظلّم البعوضة من الريح لحضرة سليمان عليه السلام، ووصية الطائر الأسير، والحكيم الذي رأى طاووساً ينزع ريشه الجميل بمنقاره، وغزال وَقعَ في حظيرة حُمُر، والحمار والثعلب، والصياد والطائر، والجمل والثور والكبش، وتعلّق الفأر بالضفدعة، والثور البحري الذي أخرج لؤلؤة شاهانية، إلى جانب قصص كثيرة غيرها.

---

(1) للاستزادة ينظر:
- حاجي خليفة. كشف الظنون، 2:1587
- خير الدين الزركلي. الأعلام،2:258.
- أدهم آل جندي. أعلام الأدب والفن،2:584.
-جلال الدين الرومي. المثنوي، مقدمة المترجم كفافي، 1:10 14.
-محمد محمود الأشتهاردي. قصص المثنوي، 1:9 13.

(2) جلال الدين الرومي. المثنوي، مقدمته باللغة العربية، 1:70.

(3) السابق، مقدمة المترجم كفافي، 1:8. عن ابن بطوطة. 1958م- رحلة ابن بطوطة، المكتبة التجارية، القاهرة، 1:187.

(4) ينظر السابق، 1:12.

(1) السابق، 1:70.

(2) نفسه،1:71.

ومما لاشك فيه أن قصص الحيوان تلك تمثّل جزءاً لابأس به من المثنوي؛ إلا أن مقام البحث يتأبّى عن الإفاضة بمدلولاتها كلها. ولهذا فإن اختيار القليل منها يمثّل نموذجاً صالحاً بغية التعرف إلى مقاصد مولانا ورصد بعدها الدلالي، وإن كان -بطبيعة الحال- لايغني عن دراستها مجتمعة.

وإذا كانت مسؤولية هذا البحث -في المقام الأول- النظرَ في دلالة قصص الحيوان في مثنوي جلال الدين الرومي، فإن هذه الدلالة -في تصوّري- تزداد وضوحاً من خلال استعراض قصة وردت أصلاً في كتاب تقدّم على المثنوي؛ إذ ليس الغرض من عرض هذه القصة أن نقصدها لذاتها، وإنما لما يُرجى من مضمونها، اعتماداً على الغايات والفحوى والدلالة.

لقد ساق الرومي قصة (الأسد والوحوش) المعروفة في كتاب كليلة ودمنة[1] بقصة (الأرنب والأسد) مفادها: أن أسداً كان في أرض كثيرة المياه والعشب، وأن هذه الأرض كانت مرتعاً لكثير من الوحوش، تعيش فيه وهي مستمتعة بمائه وعشبه. لكن ذلك لم يكن ينفعها لخوفها من الأسد الذي يهاجمها لاقتناص غذائه. وقد رأت الوحوش أن تتخلص من شرّه بأن تقدّم له كل يوم دابّة وقت غدائه. فرضي الأسد بذلك. ثم إن أرنباً وقعت عليه القرعة وصار غداء الأسد، فلم يُرد الذهاب، وأخذ يُحيك حيلة للقضاء على الأسد، فأبطأ عليه حتى جاوز وقت الغداء، ثم تقدّم إليه وأخبره بأن أسداً آخر اعترض طريقه، وأخذ منه غداء الملك بعد أن سَبّ الملك وشتمه، وكان الغداء أرنباً آخر، فطلب الأسد أن يدّله على موضع العدوّ الدخيل، فانطلق الأرنب مع الأسد إلى جُبّ فيه ماءٌ صافٍ، فتطلّع الأسد فيه ورأى ظلّه وظلّ الأرنب في الماء، فلم يشكّ في قول الأرنب، ووثب على الأسد ليقاتله فغرق، وخلصَت الوحوش من شرّه[2].

هذه القصة القصيرة التي لم تتجاوز ثلاثين سطراً عند ابن المقفّع، تناولها جلال الدين بطريقته، فخلق منها عملاً ضخماً استغرق -بكل ما اشتملت عليه- ما يقرب من أربعمئة وتسعين بيتاً. مهّد لها بقوله: " اطلب هذه القصة في كتاب كليلة ودمنة، وانشد ما اشتملت عليه من عظة " [3]. ثم بدأها وأجرى حواراً بين الأسد والوحوش، وبين الوحوش والأرنب، وبين الأرنب والأسد[4].

لقد جعل الرومي من هذه القصة هيكلاً تدور حوله مناقشات على ألسنة البهائم، تحمل دلالات تكشف عن رأيه في أعمق المسائل الفكرية. فقد تجلّى فكر الشاعر في سياقات مختلفة من الحوار بين الوحوش والأسد الذي احتل الحيّز الأبرز، للدلالة على تمسّكه بمبدأ السعي والاكتساب والجِدّ والاجتهاد في مقابل التسليم والتوكّل. تلك هي دلالة إجمالية تؤطّر تفكيره الصوفي الذي يغوص حتى الأعماق ليمتلك الإحساس بالتباين الدقيق الذي ينطوي عليه مفهوم التوكّل. فثمة فرق بين التوكّل السلبي الذي يكون بالامتناع الكامل عن بذل الجهد والاكتساب (التواكل)، وبين التوكّل الإيجابي الذي يقترن بالسعي والاجتهاد في هذه الحياة. وهذه الدلالة تتكشّف على لسان الأسد؛ حين يقول:

" فقال الأسد: إذا كان التوكّل هو المرشد (الصادق)، فإنّ (الإفادة) من الأسباب هي أيضاً سُنّة النبيّ.

فقد نادى الرسول بأعلى صوته: " اعقل فخذ بعيرك وتوكّل على الله ".

واستمع إلى مغزى قول القائل: " الكاسب حبيب الله "، ولاتكن بتوكّلك متراخياً عن الأسباب والوسائل! " [1].

وإذا كان الأمر كذلك، فلا تناقض مع مبدأ التوكّل على الله؛ إذ يقول:

" فإذا توكّلت على الله فتوكّل عليه في عملك، ألق البذور ثم تَوَكّل على الخالق الجبّار"[2].

وينتقل الشاعر ببراعة ليشغل فكره بجانب ثان نستخلص منه دلالة تكشف عن قوله بمبدأ الاختيار في مقابل الجبر. فالقول بالجبر طمع ساذج، لأنه طموح مَبنيّ على غير أساس. يقول على لسان الأسد:

" فقال الأسد: نعم! ولكن ربّ العباد وضع سلّماً أمام أقدامنا.

---

(1) يذكر ههنا أن الفيلسوف الهندي (بيدبا) وضع هذا الكتاب لـ(دبشليم) ملك الهند، وجعله على ألسن البهائم والطير. ونقله إلى الفارسية القديمة (البهلوية) رأس أطباء فارس (بُرْزُوَيْه) بأمر من (كسرى أنو شروان) ملك الفرس. ثم ترجمه إلى العربية عبدالله بن المقفع (ت759هـ) -وهو روزبه ابن دازويه فارسي الأصل- الذي تصرّف في الترجمة، وأضاف إليه إضافات لم تكن موجودة في الأصل، ولما ضاع الأصل الهندي والفارسي صارت الترجمة العربية أصلاً. وقد سُمّي (كليلة ودمنة) من باب تسمية الكل باسم الجزء نسبة إلى ثُعلبيْن شقيقيْن يقومان بدور كبير في أحد أبوابه. ينظر ابن المقفع. 1965م كليلة ودمنة، دار مكتبة الحياة، بيروت، ص 7 10.

(2) ينظر السابق، ص 152-154.

(3) المثنوي، 157:1.

(4) ينظر نفسه، 157:1-203 . نظراً إلى ضيق مجال هذا البحث، اكتُفي بالإشارة إلى الصفحات التي عَرَض فيها الشاعر قصته بكل مسائلها وموضوعاتها دون ذكر الحوار الذي دار بين الشخصيات، إلا إذا اقتضت الضرورة العلمية ذلك.

(1) السابق، 158:1-159.

(2) نفسه، 162:1.

فالواجب أن نصعد السلّم درجة درجة نحو القمة. وأما القول بالجبر هنا فإنه طمع ساذج " (3).

ولهذا فإن الاختيار –عنده هو السعي لشكر النعمة المتمثّلة في مختلف الجوارح التي وهبنا الله إياها لتمنحنا القدرة على بذل الجهد والاكتساب. أما الجبر فهو إنكار هذه النعمة، وعجز واستسلام كامل يُفقد صاحبه القدرة على السعي والاجتهاد. فهو يقول على لسان الأسد:

" إن لك ساقين، فكيف تجعل من نفسك إنساناً أعرج؟ وإن لك يدين فكيف تخفي أصابعك؟

فالسيّد عندما يضع الفأس في يد عبده، يتّضح مرادُه دون حاجة إلى القول.

فاليد مثل الفأس، إشارة منه إلينا (لنسعى)، والتفكّر في العقبى عباراتُه (الموجهة إلينا).

إن السعيَ لشُكْر نعمته لَهُو القدرة (والاختيار)، وأما إنكار النعمة فهو الجبر" (1).

فالاختيار –برأيه هو القدرة، والجبر هو انعدام هذه القدرة، بل هو النوم، وأي نوم؟! إنه النوم في الطريق الذي يحمل معنى جديداً يبعث في النفس إيحاءاً قوياً بالدلالة على (التوكّل السلبي). ولهذا فهو يدعو إلى اليقظة التي تفتح الآفاق أمام صاحبها. وإن كان لابد من نوم فليكن تحت شجرة السعي المثمرة التي تبثّ إيماءة خفية إلى قدرات الإنسان التي تعود عليه بمختلف الثمار، فهو القائل:

" واعتقادُك الجبرَ مثلُ النوم في الطريق، فلا تَنَمْ! فكُنْ يقظاً حتى ترى الباب والصرح !

حذار أيّها الجبريّ الذي لا يعتبر! لا تَنَمْ إلا تحت هذه الشجرة المثمرة " (1).

وليس هذا فحسب؛ بل إن الجبر أشبه بالتّمارض الذي يتنامى ليصبح مرضاً حقيقياً ينتهي بحياة صاحبه إلى الموت المؤكد؛ يقول:

" وكُلُّ مَنْ بقي –لتَرَاخيْه وكسله بلا شُكْر ولاصبر، فهو يعلم أنه يسير في طريق الجبر.

وكُلُّ مَنْ اتّخذ الجبرَ مَذهباً، أمرَضه الجبرُ، ولازمه حتى يودعه في قبره.

ولقد قال الرسول: " إنّ مَنْ يتمارض يمرض حتى يموت كما ينطفيء السراج " (2).

ولم يَفُت الرومي أن يشغل فكره بجانب ثالث تتبدّى فيه دلالة على قوله بمبدأ القضاء والقدر في مقابل الحذر؛ يقول على لسان الوحوش:

" فقالت جملة الوحوش: أيّها الحكيم العالم، دَع الحذر فليس يغني عن قدر.

إن في الحَذَر الحيرة البالغة والشّر، فاذهب وتوكّل على الله، فالتوكّل خير.

ولا تضرب بقبضتك القضاء –أيها العنيف الحادّ حتى لايلتحم القضاء في صراع معك.

فالمرء يجب أن يكون ميّتاً أمام حكم الحقّ، وإلا جاءته الضربة من ربّ الفلق " (3).

فالحذر لا ينجّي من القدر. وهذه الدلالة تبيّن من حديثه عن فرعون الذي دفعه حذره إلى قتل الذكور من أطفال بني إسرائيل، ومع ذلك لم ينجُ مما كان يخشاه. فهو الذي رعى الطفل (موسى) مذ كان في المهد إلى أن كبر وزال ملكه على يديه؛ فهو القائل على لسان الوحوش:

" فكم يفرّ المرء من بلاء ليقع في بلاء آخر! وكم يهرب المرء من الثعبان ليلقى التنّين!"

لقد احتال الإنسان فكانت حيلته شَرَكاً وقع فيه، وكان موته فيما حسب أنه حياته!

فقد أوصد الباب والعدوّ في منزله! وإنّ حيلة فرعون لم تكن إلا قصة من ذلك النوع.

فهذا الحقود قد قتل ألوف الأطفال، بينما كان الطفل الذي يبحث عنه في منزله! " (4).

ولعل من المفيد التوقّف عند جانب آخر مهمّ يختص بالدلالة على رأيه في الجهاد الأكبر في مقابل الجهاد الأصغر. فهو يرى أن ثمة عدوّاً ظاهرياً يمكن قتله، وآخر باطنياً لايمكن القضاء عليه. وفي هذا إشارة صريحة منه تحمل دلالة على النفس البشرية. فهو يقول في نهاية هذه القصة:

---

(3) نفسه، 1:160-161.

(1) السابق، 1:161.

(2) نفسه، 1:174.

(3) نفسه، 1:158.

(4) نفسه،:1:159.

" ايها الكُبَرَاء! لقد قتلنا عدوّنا الظاهري، وبقي عدوٌّ أمرٌّ منه في باطننا!
وقتل هذا (العدوّ الباطني) ليس من عمل العقل والحكمة، فالأرنب لايقدر على تسخير أسد الباطن.
إنّ هذه النفس جهنّم، وجهنّم تنّين لا تُنقص من قوته البحار" (1).

وإذا كانت الحكمة في عدم قتل العدّو الباطني، فإن الحكمة تتمثل في محاربة السوء فيه إلى أن يصلح ويستقيم؛ يقول:

" وليس يُركَّبُ في القوس إلا السهم المستقيم. وقوس (النفس) ليس به إلا سهام معكوسة مُعْوَجّة!
فكُنْ مستقيماً كالسّهم، وانطلق من القوس، فلا شك أن كلّ (سهم) مستقيم ينطلق من القوس.
فأمّا وقد رجعتُ من الحرب الظاهرة، فإني قد اتجهت الآن إلى حرب الباطن.
لقد عُدنا من الجهاد الأصغر، وها نحن مع الرسول في الجهاد الأكبر " (2).

وإلى جانب هذه المسائل الفكرية كثير من المواعظ والأمثال والحكم التي تحفل بدلالات متنوعة على معان رائعة من وحي تعاليمه الأخلاقية والصوفيّة؛ من ذلك ــ مثلاً قوله الذي ختم به القصة:

" وإني لألتمس من الله القوة والتوفيق، (وما يحملني على) الفخار حتى أقتلع بإبرة جبلَ قاف
واعلم أن من اليسير على الأسد أن يُمزّق الصفوف. ولكن الأسد (القوي) هو ذلك الذي يتغلّب على نفسه " (2).

فضلاً عما احتوته هذه القصة من قصص جانبية ترابطت معها في الهدف والحكمة والمعنى استطرد(3) إليها الشاعر ليبعد السأم عن المتلقّي، ويذكي فضوله، ويشدّه إلى المتابعة، ويكسب تصديقه، وليؤكد دلالة رمى إليها؛ من ذلك: قصة الهدهد وسليمان التي تحمل دلالة على أنه حين يقع القضاء تُغْلَقُ العيون المُبْصِرة(1). وقصة سيدنا آدم التي تؤكد دلالتُها على سابقيّتها حين أوحت بأن القضاء حجب بصر آدم عليه السلام عن صريح النهي، وترك التأويل مما أوقعه في الخطأ(2). وقصة ثالثة تتضمّن دلالة على زيف التأويل الركيك الذي قالت به ذبابة وقفت على عود قشّ فوق بَوْل حمار، ورفعت رأسها كربّان سفينة، وسَمَّت هذا البول بحراً بعد جهد وطول تفكير(3).

تلك هي دلالات عامة كشفت عن الأفكار الصوفيّة التي تبنّاها الشاعر. إلا أن ثمة دلالات جزئية جانبية تضمّنتْها ألفاظٌ وردت في سياقات مختلفة ومواقف كلامية متعدّدة.

فلدى النظر في ألفاظ هذه القصة ــ وبحسب الترجمة المعتمدة في هذا البحث تبيّن أن الرومي أكثرَ من استخدام بعض الألفاظ، على حين لم يكثر من استعمال بعضها الآخر. وبما أن الدرس الدلالي ههنا يتوقف عند الألفاظ التي يشكل تكرارُها ظاهرةً واضحة، فإنه ليس من الممكن معرفة هذه الألفاظ، مالم تُحْصَ جميعها.

ومن الطبيعي أن يستخدم الشاعر عدداً وفيراً من الألفاظ التي تدلّ على (الحيوان) في هذه القصة. فقد بلغت عدد مرات الاستعمال (155) مئةً وخمسة وخمسين استخداماً، شملت أنواع الحيوانات: فمنها مايدبّ، ومنها مايسبح، ومنها مايطير ومنها مايزحف إلى جانب بعض الحشرات؛ من ذلك: الأسد، والأرنب، والوحوش، والحمار، وحمار الوحش، والفرس، والثيران، والفيل، وتمساح النهر، والكلب، والذئب، والثعلب، والقرد، وابن آوى، والغزال، والشاة، والفأر، والتنّين، والحيّة، والثعبان، والعقرب، والطير، والعنقاء، والهدهد، والغراب، والنحل، والذبابة، والبعوضة، ودودة الحرير.

وقد يبدو للدارس أن هذه الألفاظ تشترك مدلولاتها في دلالة واحدة على صفة البهائمية وعدم الإدراك، لكنها في الحقيقة تختلف في الإيحاءات الخاصة بها، وتتنوّع في المعاني الجزئية بتنوّع سياقاتها. ولعلّ الشاعر استخدم لفظ (الأسد) و (الأرنب) بنسبة ترتفع عما سواها من الألفاظ، لأن الأسد يختصّ بالإيحاء بفكرة قوّة البدن والشراسة. أما الأرنب فيحمل إيحاءاً بالمكر وقوة العقل. وقوة العقل تفوق قوة الجسد. فإذا قدر هذا المخلوق ــ مع صغره وضعف جسمه على التخلّص من مرابط الهَلَكة بقوة رأيه وثبات قلبه، فالإنسان الذي أُعطي العقل والفهم، وأُلهم الخير والشر، ومُنح التمييز والمعرفة أولى بذلك وأحْرى. ولهذا عليه أن يفتّش عن جوهر الأشياء، وأن يقيس الأمور على أساس تقديره لحقيقتها وجوهرها،

---

(1) السابق، 202:1.

(2) نفسه، 203:1.

(3) تجدر الإشارة ههنا إلى أن الرومي لم يشكل سابقة في ظاهرة الاستطراد، وثمة من تقدّم عليه، وهم كثر؛ من هؤلاء الجاحظ (ت 255هـ) الذي تعمد الاستطراد فيما يكتب ويؤلف لأنه يرى ذلك خير وسيلة لإبعاد الملل عن القارئ وانفتاح القلوب وتفهم العقول. ينظر قصص الحيوان التي وردت في كتابه (الحيوان). 1356هـ. تحقيق عبد السلام هارون، الطبعة الأولى، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، مصر.

(1) ينظر المثنوي، 187:1-189.

(2) ينظر السابق،190:1-193.

(3) ينظر نفسه، 176:1.

وليس على أساس نظرته السطحية إلى تلك الأمور؛ لأن العبرة ليست بالصورة الظاهرة، ولا بضخامة الأبدان. فقد يتحقق للضعيف ما لا يتحقق للقوي. فالأسد القوي صرعه أرنب ضعيف. أما (الوحوش) فرمز العداوة بين الناس. ولعلها تحمل إيماءة خفية إلى مَنْ يقول بمبدأ التواكل. وفي لفظ (الحمار) تلميح إلى الأذن الحسّية التي لاتدرك الرموز ولاتستمع إلى الأسرار. وفي لفظ (دودة الحرير) إشارة إلى ظلم الإنسان نفسَه بذنوبه؛ ذلك أن دودة القزّ هذه تنسج حول نفسها مايقضي عليها ويكون فيه هلاكها. وهكذا فإن (الكلب) يوحي بالخِسّة والوضاعة، و(الثعلب) بالحيلة والدهاء والرَّوَغان، و(التنّين) الذي يُرْمز به إلى جهنّم، و(تمساح النهر) إلى الاضطراب والنكران، و(الذبابة) إلى زيف التأويل الركيك، و(البعوضة) إلى استصغار ما استعظم. وغير هذا كثير(1).

كما أكثر الشاعر من استخدام لفظ (اللون) ولفظ (الألوان)، وألفاظ (الأحمر، والوردي، والأخضر، والأصفر، والأزرق). إذ وردت (34) أربعاً وثلاثين مرّة في سياقات مختلفة. فالأحمر والأخضر والوردي مجموعة ألوان لا تُرى إلا بتسليط النور عليها؛ فهي لاترى في الظلام. ولعلّ تلك الألوان تحمل دلالة على تفصيلات المعارف عند الشاعر، ولاسبيل إلى التيقّن من هذه المعارف من دون أساس الهداية الأوّل (نور الله) الذي يكون في القلب. إنه نور خالص من نور العقل والحس منفصل عنهما(2). أما لفظ (الأصفر) فللدلالة على الاضطراب وكفر النعمة والنكران. ولفظ (الأزرق) للدلالة على الإبصار الخاطيء، فالعالم يبدو أزرق اللون عندما نضع زجاجة أمام أعيننا(3) . وهذا يشبه تماماً قولهم عن المتشائم: ينظر إلى الدنيا بمنظار أسود.

وما يلفت الانتباه ويستدعي التركيز أن أفعالاً مختلفة وردت في صيغتين اثنتين؛ أولاهما صيغة الأمر التي وردت في (75) خمسة وسبعين موضعاً؛ من ذلك: استمع إلى قول القائل، وأفن بصرك في بصر الحبيب، وكن رحيماً بي، وأشرب قلبك محبتي، وتعلم العلم من الحق، ودع الحذر، وكُنْ يقظاً، وابذل جهدك، وجّدد إيمانك، وتوكّل، وتأمّل، وانظر، وتنبّه، واصبر، واعلم، وأصغ، واطلب... وغير ذلك. والثانية صيغة النهي التي وردت في (18) في ثمانية عشر موضعاً؛ نحو: لاتضرب بقبضتك، ولا تعصب رأسك، ولا تفرح بملك وقتيّ، ولا تدع الحرية، ولاتنم، ولا تتوانَ، ولاتهرب... وغير هذا. وذلك كله إما بصورة مباشرة، أو بصورة غير مباشرة على لسان الحيوانات(1). ولعلّ السبب في كثرة استخدام هاتين الصيغتين يعود إلى التجربة الصوفيّة التي يبرز فيها نظام (التّلْمَذة) الذي يقوم أساساً على القطب أو الشيخ والمريد أوسالك الطريق. والرومي —وبفضل مرجعيته الدينية والفكرية، وطريقته المتصوّفة في النظر إلى الإنسان، وإلى قضايا الإنسان الدينية والفكرية والاجتماعية محكوم بجملة أهداف تعليمية. ولهذا كرّس هذه القصة بكل تفاصيلها ودقائقها للدلالة على مبادئ أخلاقية عامة، أو صوفية خاصة. يسعى من ورائها إلى تحقيق فائدة، أو دعوة إلى خُلُق كريم، أو نهي عما ساءَ منه، أو إقرار بصحة طريق التصوّف انطلاقاً من كونه حاجة إنسانية مُلِحّة إلى الخلاص والتطهير.

وتستوقفنا في هذه القصة ألفاظ كان قد ذكرها بعض اللغويون العرب القدماء على أنها من الألفاظ المتضادّة، -وهذا ما فعله الرومي في استخدامه لهذا النوع من الألفاظ على حين ذكرها علم اللغة الحديث تحت مصطلح Incosistency (التناقض الذاتي)؛ من مثل ألفاظ: الأبيض والأسود، والشجاعة والجبن، والأمن والخوف، والسخاء والبخل، والرّخاء والشدّة، واللُطف والقسوة، والنّور والظلام، وغير ذلك. وتفسير هذا عند اللغويين المحدثين أن اللفظ عندما يُذْكر يستدعي اللفظ المطابق له دلالياً، فإذا ذكر لفظ (العلم) تبادر إلى الذهن لفظ (الجهل)، وكذلك ذكر (الليل) يثير معنى (النهار). وهذا يدلّ أن كل كلمة تلفظ تثير معناها المضاد(1). فهي كما يبدو تثير معناها المضاد، ولا تحمل في ذاتها دلالة على المعنى المضاد أو تعبّر عنه؛ كما الحال في الألفاظ المتضادة التي تعني أن اللفظ الواحدَ يحمل دلالتين على معنى وضده في آن معاً. فلفظ (الجلل) يدلّ على العظيم من الأمور، كما يدلّ على اليسير منها. ولفظ (الجَوْن) للدلالة على الأبيض والأسود، ولفظ (القرء) للدلالة على على الطهر والحيض. وغير ذلك. ويبقى السياق وحده صمّام الأمان الذي يزيل الغموض عن الإفهام، لأنه يحدّد المعنى المقصود بدقّة لا لبس فيه ولا غموض.

ومن الملاحظ أن هذه القصة تحفل بالألفاظ المتناقضة؛ مثل(الكفر والإيمان)، و(النور والظلام)، و(الخير والشر)، و(العدوّ والصديق)، و(اللطف والقسوة)، و(العسل والسم)، و(السعد والنحس)، و(الحضيض والأوج). وغير ذلك(2). وقد وردت هذه المتناقضات في (40) أربعين موضعاً. وإذا حاولنا أن نلتمس تعليلاً يفسّر كثرة استخدام المتناقضات، ربما جاز لنا أن نعزو ذلك إلى طبيعة الحياة الملأى بالصور المتناقضة؛ إذ الخير والشرّ، والفضيلة والرذيلة، والكمال والنقص،

(1) تنظر هذه الدلالات في الصفحات الواقعة بين (157) و (203) من المصدر السابق.

(2) السابق،1:180.

(3) نفسه،1:198.

(1) محمود السعران. د.ت. علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، دار النهضة، بيروت، ص 185-186.

(2) ينظر هذه المتناقضات وغيرها في الصفحات الواقعة بين : (157) و (203) من المثنوي.

والمثالية المترقّعة، والواقع المظلم المرير. مما يوحي بأن الشاعر ربما قصد ثبات هذه المتناقضات في ذهن المتلقّي، كي يأخذ الجانب المثاليّ منها، ويترك ما سواه. سيّما وأن الشاعر ذو إحساس مرهف بالكلمات، وهو قادر على أن يستعملها في المواضع التي تؤدي دلالاتها الجانبية أو إيحاءاتها الخاصة تأثيراً لايستطيع غيرها من الكلمات أداءه، دون أن ينحرف المعنى عن الوجهة التي يبغيها الشاعر، فهو يريد هذا أو ذاك من المعاني، وله ما أراد.

وهكذا؛ فإننا نستخلص من جميع ماتقدم أن ثمة وظيفة دلالية تتبنى الفكرة الصوفيّة، وتحمل محتواها الفكري والروحاني والعرفاني، وتحاول أن تكتسب القيمة الإقناعية من لدن المريدين والطلاب وسالكي طريق التصوّف من خلال القصّ الحافل بالحكايات والمواعظ والأمثال والحِكم؛ متّخذاً من النُّصْح والوعظ والإرشاد مسلكاً ومن الأمر والنهي سبيلاً. ولهذا كانت هذه القصة وغيرها واحدة من وسائل التعلّم التي يستنير بها المريد طريقه في التصوّف، فيتمتع بيقينه وحلاوته، ويتدبّر أخطاره وعثراته.

وما من شك أن هذه القصة تحفل بالمعاني المثالية الرائعة، ويغلب عليها الصدق، والبساطة والبعد عن التكلّف. ومع أن فكره كان في أعمق حدوده إلا أنه يستهوي النفوس ويؤثّر فيها، لأنه كان يسعى دائماً إلى دعوة الإنسان إلى الحكمة والمثالية والكمال في هذه الحياة. فهو " لم يكن فيلسوفاً فحسب، وإنما كان حكيماً عملياً. لقد تقبّل الحياة وتفاعل معها، وعَدَّها واقعاً لاشك فيه، وأوْجَب العمل فيها " (1).

ومن هنا كانت قصص الحيوان –إلى جانب غيرها من القصص من أروع مافاضت به شاعريته الصوفيّة، بوّأت صاحبها مولانا جلال الدين الرومي المكانة الحقّة في الشعر العالمي، وكتبت له الخلود على مرّ الزمان.

ـالمصادر والمراجع

ـآل جندي، أدهم. 1958م أعلام الأدب والفن. مطبعة الاتحاد، دمشق.

ابن المقفع، عبد الله. 1965م كليلة ودمنة. دارمكتبة الحياة، بيروت.

الأشتهاردي، محمد المحمودي. 1418هـ 1998م قصص المثنوي. الـ

الجاحظ. 1356هـ الحيوان. تحقيق عبد السلام هارون، الطبعة الأولى، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، مصر.

حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله. 1362هـ 11943م كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون. عني بتصحيحه وطبعه محمد شرف الدين يالتقيا، ورفعت بيلكه الكليسي، وكالة المعارف، اسطنبول.

الحنفي المصري، محي الدين عبد القادر. 1332هـ الجواهر المُضيَّة في طبقات الحنفية، الطبعة الأولى، مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية، حيدر آباد، الهند.

الرومي، جلال الدين. 1966م المثنوي. ترجمة محمد عبد السلام كفافي وشرحه و دراسته، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.

ـالزركلي، خير الدين. 1375هـ 1956م الأعلام، مطبعة كوستا تسوماس، الطبعة الثانية، القاهرة.

السعران، محمود. د.ت. علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، دار النهضة، بيروت.

مولوي، مراد كمال الدين. 2000م قصص مثنوي جلال الدين الرومي، دمشق.

(1) المثنوي، كفافي، 41:1.